﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾:

هذه آية للقدرة الرحيمية الإلهية وإنكم تخرجون، تحمل آيات لقوم يتفكرون، وهذا تعبير رفيق رقيق عن أعمق العلاقات بين الزوجين بما جعل الله، التقاطاً لصورتهما من أعماق القلب وأغوار الحس كما ألقاها الله، إلفاتاً إلى أعظم النعم الحيوية المعيشية لقبيل الإنسان أياً كان وأيان ﴿فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾[1]؟

﴿أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا﴾ و«كم» هنا تعني كل البشر من أنثي وذكر، فقد خلق لكلّ من نفسه زوجاً، فللذكر زوج الأنثى وللأنثى زوج الذكر، حيث الزوج هو القرين وأقرن القرناء للحياة الإنسانية هم الأزواج، تأسيساً للحياة البيتية العائلية، التي تنشأ منها كل المجتمعات الإنسانية الأخرى.

واللام في ﴿لَكُم﴾ للانتفاع حيث ينتفع كل زوج من زوجه مختلف منافع الزوجية، دون اختصاص بالذكور من الأناث، كما أن «كم» تشملهما دون اختصاص، فقد جهز كلّ بجهاز لا يتم فاعليته إلّا بقرنه بالآخر، لواقع اللذة المرغوبة جنسياً، وحاصل الولائد التي هي استمرارية لحياتهما وأنس لهما وعضد في حاجيات الحياة، ويا لكل منهما من تركيب نفسي وعصبي وعضوي، لوحظت فيه رغائب كلّ بتلبياتها، ائتلافاً وامتزاجاً على طول الخط، ولإنشاء حياة جديدة تتمثل في جيل جديد يستمر به الوالدان.

وذلك الافتقار لكلّ إلى الآخر جنسياً وولادياً هو الذي يحرّك كلا إلى الآخر، ويحمّل كلّا عبء الحياة الزوجية للآخر وهما يتقبلانها بكل إقبال وإجمال.

(١) سورة الرحمن، الآية: ١٣.

و«من» هنا جنسية تعني المجانسة بين الزوجين، لا النشوية إذ لم ينشأ كلّ من الآخر، والزواج محرم بين ناشئ من آخر وهو الولادة قريبة أم بعيدة.

ولماذا ﴿خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا﴾؟ ﴿لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا﴾ حيث الزوج لا يسكن إلى زوجه من غير جنسه، مهما انفلت إليه أحياناً كما في زواج بين الإنس والجن، فإنها فلتة لا تدوم، والحياة الزوجية هي حياة السكن الدائبة.

فقد ﴿خَلَقَ﴾: لتسكنوا ﴿لَكُم﴾: لتسكنوا - ﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ - ﴿لِّتَسْكُنُوٓاْ﴾ فالسكن الحيوي عن ضربات الحياة الدنيوية واضطراباتها هو - بالفعل - الغاية المقصودة من ﴿خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ مثلث من الآيات الرحمات تنحو منحى سكون الحياة عن اضطرابات، ولأن مجرد الخلق لكم لتسكنوا لا يكفي وئاماً تاماً بين الزوجين تاماً، والرابطة الجنسية غير كافلة بتحمّل مشاق الحياة العائلية، لذلك:

﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ تحكيماً لتلك العلاقة الوطيدة بين الزوجين، فالمودة - كما يتلمح من آياتها - هي المحبة الظاهرة في العمل، وكصراح لهذه اللمحة ﴿إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾[1] حيث الودّ بعد الرحمة ليس رحمة مجردة، إذاً فهو الرحمة البارزة واقعياً.

والمودة المجعولة بين الزوجين ظاهرة في عشرتهما إن لم يحصل مانع في البين، فالحياة الزوجية الودية تشغل - لو لا الموانع - مشاعرهم وأعصابهم، قالاتهم وفعالاتهم وكل اتصالاتهم وانفصالاتهم، وحقاً يروى عن رسول الهدى انه «ما يعدل الزوج عند المرأة شيء»[2]، ثم «ورحمة» قد

(١) سورة هود، الآية: ٩٠.

(٢) نور الثقلين ٤: ١٧٤ في الكافي أحمد بن محمد عن معمر بن خلاد قال سمعت أبا الحسن عليه السلام يقول: قال رسول الله صلى الله عليه وآله لابنة جحش: قتل خالك حمزة، قال: فاسترجعت وقالت: =

تعني بعد «مودة» الرحمة الزائدة بعد الولادة بالولائد وبين الوالدين، أم هي تأثر نفساني إيجابياً بمودة، وسلبياً حين يرى الزوج زوجه بحاجة مدقعة أمّاهيه من حرمانات، فيحاول في جبرها قدر المستطاع، كما بالنسبة للولائد الصغار ولافتقارهم وصغارهم.

ومن ناحية أخرى كلما ولّى الشباب توارى معه الجمال، وضعفت القوة الجنسية، والذرية تجبر ذلك التواري والانكسار حيث تظهر أنوار الرحمة المتوارية وراء ظلمة الشبق والشهوة فلا تزال الرحمة تزداد عطفاً بينهما بشأن الذرية وبشأنهما كمنشأين للذرية، وهذه هي الرحمة بعد المودة.

ثم ﴿لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ في ﴿أَنْ خَلَقَ لَكُم...﴾ هي آية الرحمة الرحمانية خلقاً لنا، وآية الرحمة الرحيمية أن جعل لنا أزواجاً من أنفسنا، وأخرى هيه ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ وثالثة أن خلق لنا بزواجنا مواليد، إخراجاً لأحياء من ميتات المياه المنوية، وهذه الأخيرة هي من آيات المعاد انكم كذلك ﴿تُخْرَجُونَ﴾.

فالخلق العجيب الإنساني بكل حذافيره فردية وجماعية، جسمية وروحية أماهيه، إنه آية تحوي آيات آفاقية وأنفسية بشتات رحمات الله ﴿لِّقَوْمٍ

= احتسبه عند الله ثم قال لها: قتل أخوك فاسترجعت وقالت احتسبه عند الله ثم قال لها: قتل زوجك فوضعت يدها على رأسها وصرخت فقال رسول الله ﷺ: ما يعدل الزوج عند المرأة شيء» فيه عن الكافي محمد بن يحيى عن أحمد بن محمد بن علي بن الحكم عن معاوية بن وهب قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: انصرف رسول الله ﷺ من سرية قد كان أصيب فيها ناس كثير من المسلمين فاستقبلته النساء يسألن عن قتلاهن فدنت منه امرأة فقالت يا رسول الله ما فعل فلان؟ قال: وما هو منك؟ قالت: أبي، قال: احمدي الله واسترجعي فقد استشهد، ففعلت ذلك، فقالت يا رسول الله وما فعل فلان؟ فقال: وما هو منك؟ فقالت: أخي فقال: احمدي الله واسترجعي فقد استشهد ففعلت ذلك ثم قالت يا رسول الله ما فعل فلان؟ فقال: وما هو منك؟ قالت: زوجي - قال: احمدي الله واسترجعي فقد استشهد فقالت: وا ويلا فقال رسول الله ﷺ ما كنت أظن أن المرأة تجد بزوجها هذا كله حتى رأيت هذه المرأة!.

يَتَفَكَّرُونَ﴾ فيها، ثم بعد هذه الآيات القريبة في أعماقنا، التي نعيشها في ذواتنا وذاتياتنا وصفاتنا وكل حيوياتنا، هنا نقلة إلى واسع الكون ككل:

﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَـٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَـٰتٍ لِّلْعَـٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾﴾:

اختلافات ثلاث كلّ تدل بدورها على تخليق قاصد، دونما صدفة عمياء، أم إرادة محصورة بلون واحد من الخلق، فـ ﴿خَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ بمختلف أشكالهما وأحوالهما، ﴿وَٱخْتِلَـٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ﴾ وأنتم كلكم مخلوقون من تراب، كل ذلك دليل التصميم الحكيم في كل خلق ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ الخلق المختلف المؤتلف ﴿لَءَايَـٰتٍ لِّلْعَـٰلِمِينَ﴾ فطرياً وعقلياً وفكرياً، فلسفياً وتجريبياً، أم أي حقل من حقول العلم الإنساني، فإنه أياً كان يستخدم لهذه المعرفة الغالية نظراً إلى الخلق ككل بمختلف أطواره وتطوراته، ونظراً إلى اختلاف الإنسان في الألسنة والألوان[1] و كما أن اختلاف الألسنة والألوان آية القدرة الحكيمة الرحيمية ﴿لِّلْعَـٰلِمِينَ﴾ المفكرين فيها، كذلك هو آية للتعرف إلى أصحابها، فقد تشير الألوان والقالات إلى الحالات ﴿لِّلْعَـٰلِمِينَ﴾[2] كما وإن

(١) نور الثقلين ٤: ١٧٣ في علل الشرايع باسناده إلى عبد الله بن يزيد بن سلام أنه سأل رسول الله ﷺ فقال أخبرني عن آدم لم سمي آدم؟ قال: لأنه خلق من طين الأرض وأديمها، قال: فآدم خلق من الطين كله أو من طين واحد؟ قال ﷺ: بل من الطين كله، ولو خلق من طين واحد لما عرف الناس بعضهم بعضاً وكانوا على صورة واحدة، قال: فلهم في الدنيا مثل؟ قال: التراب فيه أبيض وفيه أخضر وفيه أشقر وفيه أغبر وفيه أحمر وفيه أزرق وفيه عذب وفيه مالح وفيه خشن وفيه لين وفيه أصهب، فلذلك صار الناس فيهم لين وفيهم خشن وفيه أبيض وفيهم أصفر وأحمر وأصهب وأسود على ألوان التراب.

(٢) نور الثقلين ٤: ١٧٤ في أصول الكافي عن أبي عبد الله عليه السلام أنه قال: إن الإمام إذا أبصر إلى الرجل عرفه وعرف لونه وإن سمع كلامه من خلف حائط عرفه وعرف ما هو ان الله يقول: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَـٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَـٰتٍ لِّلْعَـٰلِمِينَ﴾ [الروم: ٢٢] وهم العلماء فليس يسمع شيئاً من الأمر ينطق به الا عرفه: ناج أو هالك فلذلك =

في معرفة الألوان والألسن المختلفة «لآيات للعالمين» بها[١] وقد يعرف العارف بها وحدتها في أصلها.

﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٢٣﴾﴾:

هنا ﴿مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ يعم النوم لهما، كما ﴿وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ﴾ يعني بهما تعميماً آخر، وآيات أخرى تختص الليل بالمنام والنهار بابتغاء فضل الله ﴿أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾[٢] ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾﴾[٣] ومن الأولى خلطاً بينهما ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ﴾[٤].

= يجيبهم بالذي يجيبهم» فيه عن توحيد المفضل بن عمر عن الصادق عليه السلام في الرد على الدهرية: تأمل يا مفضل ما أنعم الله تقدست أسماؤه به على الإنسان من هذا النطق الذي يعبر عما في ضميره وما يخطر بقلبه ونتيجة فكره، به يفهم غيره ما في نفسه ولو لا ذلك لكان بمنزلة البهائم المهملة التي لا تخبر عن نفسها بشيء ولا تفهم عن مخبر شيئاً... إن الإنسان وإن كان له في الأمرين - الكتابة واللغة - جميعاً فعل أو حيلة فإن الشيء الذي يبلغ به ذلك الفعل والحيلة عطية وهبة من الله عز وجل في خلقه فإنه لو لم يكن له لسان مهيأ للكلام وذهن يهتدي به للأمور لم يكن ليتكلم أبداً.. فاصل ذلك فطرة الباري جل وعز وما تفضل به على خلقه فمن شكر أثبت ومن كفر فإن الله غني عن العالمين.

(١) المصدر في بصائر الدرجات أحمد بن محمد بن علي بن الحكم عن حماد بن عبد الله الغرا عن معتب أنه أخبره أن أبا الحسن الأول لم يكن يرى له ولد فأتاه يوماً اسحق ومحمد أخواه وأبو الحسن يتكلم بلسان ليس بعربي فجاء غلام سقلابي فكلمه بلسانه فذهب فجاء بعلي ابنه فقال لأخوته: هذا علي ابني فضموه إليه واحداً بعد واحد فقبلوه ثم كلم الغلام بلسانه فذهب به ثم تكلم بلسان غير ذلك اللسان فجاء غلام اسود فكلمه بلسانه فذهب فجاء بإبراهيم فقال: هذا ابراهيم ابني فكلمه بكلام فحمله فذهب به فلم يزل يدعو بغلام بعد غلام ويكلمهم حتى جاء بخمسة أولاد والغلمان مختلفون في أجناسهم وألسنتهم! «وفيه عن عمار الساباطي قال قال لي أبو عبد الله عليه السلام يا عمار!: «أبو مسلم وظلله وكسا فكسحه مسطوراً» قلت: جعلت فداك ما رأيت نبطياً أفصح منك، فقال: يا عمار وبكل لسان.

(٢) سورة النمل، الآية: ٨٦.

(٣) سورة النبأ، الآيتان: ١٠، ١١.

(٤) سورة القصص، الآية: ٧٣.

والجمع يلمح بأصالة الليل سكناً والنهار مبصراً، وفرعية المعاكسة عند الحاجة، وطبعاً إبصاراً بالليل بضياء، وإظلاماً بالنهار بستر، حيث النور تمانع الرياحة كما الظلمة تمانع السعي للمعيشة، ﴿وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾ في النهار ظاهر تكسّباً للمعيشة التي هي على أية حالة من فضل الله، فليست المساعي لتحصيلها إلّا أسباباً قرّرها الله لإدرار فضله كما يشاء، فقد يكون السبب طلب المعيشة، وأخرى هو التقوى لمن يترك طلب المال إلى طلب العلم تعلماً وتعليماً وتطبيقاً يجمعها علم التقوى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾[1].

كما ابتغاء فضله بالليل يعمهما، ولا سيما صلاة الليل التي هي ابتغاء لفضله روحياً ومادياً، إذاً فلا يختص ابتغاء فضله بليل أو نهار بالمادي المعيشي، بل والروحي، فليعش الإنسان دوماً ليل نهار ابتغاء من فضل الله في يقظته، ورياحة عن ابتغاءه بنومه، بل والنوم أيضاً من فضل الله حيث يريح الإنسان عن عبء الطلب ويعده لمواصلته ابتغاء لفضل الله أياً كان.

وليس النوم مما يبتغي إذ قد يهمل فيه فينهل الجسم وتنحلّ القوى، فـ«فيه راحة البدن وإجمام قواه.. ولو كان إنما يصير إلى النوم بالتفكر في حاجته إلى راحة البدن وإجمام قواه كان عسى أن يتثاقل عن ذلك فيدفعه حتى ينهل بدنه»[2].

﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْىِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۝٢٤﴾:

هنا ﴿يُرِيكُمُ﴾ هي من آياته، حيث الفعل الآية من الآية، كما

(١) سورة الطلاق، الآيتان: ٢، ٣.

(٢) نور الثقلين ٤: ١٧٧ في توحيد المفضل عن الصادق عليه السلام والكرى يقتضي النوم الذي فيه راحة البدن...

ومنتوجه البرق آية، وتقدير «أن» خلاف الفصيح حيث ذكرت قبل في أفعال «إن خلقكم - أن خلق لكم» فتركها هنا ترك مقصود دون حذف، وقد تكون ﴿يُرِيكُمُ﴾ نازلة منزلة المصدر كما «تسمع بالمعيدي خير من أن تراه» ولكن الأوّل - علّه - أولى أن ﴿يُرِيكُمُ﴾ نفسها كفعل بمفعولها، هما من آياته، فهناك «أن خلقكم - أن خلق لكم» ليستا بأنفسهما مرئيتين، كما ﴿أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦٓ﴾ حيث الخلق يسبقنا فكيف نتمكن من رؤيته، وقيام السماء والأرض بأمره أمر يدرك بإمعان ولا يرى، ولكن البرق يرى، و﴿يُرِيكُمُ﴾ نفسها هي من آياته.

وظاهرة البرق هي من نشأت النظام الكوني بما يكوّنها الله، انتشاء من شرارة كهربائية بين سحابتين محمّلتين بالكهرباء أو بين سحابة وجسم أرضي كقمة جبل أم شجرة أمّاهيه، ينشأ عن هذه الشرارة تفريغ في الهواء متمثلاً في الرعد الذي يعقب البرق، ويصاحبه في الغالبية تساقط المطر نتيجة لذلك التصادم.

ورؤية البرق تطمع كما تخوّف، طمعاً في ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ وتخوفاً عن تحريقات وتخريقات أرضية بصدام البرق، فإماتة لأهلها، فنحن إذا أمام البرق بين خوف الموت وطمع الحياة ﴿فَيُحْيِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ﴾ على طول خط الحياة ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ الإراءة والتنزيل والإحياء ﴿لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ أنكم كذلك ﴿تُخْرَجُونَ﴾.

فللعقل مجالات في هذه الآيات تدليلاً على رحمات منها الحياة بعد الموات، فإنها تعقل وتؤخذ من أمثالها في تواتر الموت والحياة.

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٢٥﴾﴾:

قيام السماء والأرض - وهما الكون المخلوق كله - هو قيامهما على

حالتهما الحيوية كما هيه منذ خلقتا وأكملتا بما خلق فيهما وما بينهما، و﴿ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ﴾ تراخ بين قيامهما وهذه الدعوة المحيية بقيامة الإماتة الشاملة للسماء والأرض.

وكما أنهما تقومان بأمره، كذلك تنفطران بأمره، وأنتم - كذلك - تخرجون بأمره، وهو كلمة «كن» التكوينية، وبالنسبة للمكلفين اضافة إليها «كن» التشريعية.

فكما السماء والأرض من آياته، كذلك قيامهما بأمره وخرابهما بأمره، فلتكن هذه القدرة الشاملة شاهدة صدق لـ﴿أَنتُمْ تَخْرُجُونَ﴾.

وبماذا تتعلق ﴿مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾؟ بـ﴿دَعَاكُمْ﴾؟ وليس الله الداعي في الأرض حتى ﴿إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾! أم بـ﴿تَخْرُجُونَ﴾؟ فلماذا قدمت على متعلقها؟

التقدم في المحتمل الثاني لغاية الحصر، انكم تخرجون - فقط - من الأرض التي فيها تدخلون، وعلّ الأوّل معنيّ ضمنه لا بمعنى أن الداعي هو في الأرض، وإنما دعوته لإخراجنا من أجداثنا صادرة منه من الأرض، كموضع لتجلي الدعوة ونفاذها حيث ينفخ في الصور والناقور فيصل فيما يصل إلى المدفونين في الأرض فيحيون، ولا ضير أن يعنى ضمن المعنى دونما استقلال والأصل هو الآخر.

و﴿إِذَآ﴾ الثانية للمفاجأة قائمة مقام فاء الجزاء لشرط ﴿إِذَآ﴾ الأولى، فالخروج من الأرض حياً بعد موت مفاجأة في متاه ومداه، وليس بدعاً من الحياة بعد الموت المتواترين المتلاحقين على مر الزمن دون إبقاء، كيف لا؟:

﴿وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿٢٦﴾﴾:

«له» ملكية وملكية حقيقية ذاتية دونما زوال ولا انتقال ﴿مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ﴾ فضلاً عنهما، «كلّ» منهما ومن فيهما، «له» لا لسواه ﴿قَٰنِتُونَ﴾

خاضعون لإرادته، فالقنوت هنا - ككل - هو الطاعة الخاضعة الخاشعة التكوينية، مهما كان المؤمنون له ﴿قَٰنِتُونَ﴾ تشريعياً كما هو تكوينياً.

فـ ﴿مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ ككل - عصاة ومؤمنين، هم له قانتون في كل كونهم وكيانهم مهما عصت عقول بعضهم وأعمالهم، وليست النقلة إلى الحياة الأخرى فعلة لهم مختارة حتى يتمكنوا من عصيانها، فكما أحياهم دون اختيار لهم إذ لم يكونوا أحياء، كذلك يحييهم بعد موتهم ﴿لِيَجْزِيَ كُلَّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ﴾[1].

﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾﴾:

ولأن له ما ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ و﴿كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ﴾ دونما استقلال لشيء وتمنّع عن إرادته، فـ هو ﴿ٱلَّذِي يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ﴾ أياً كان البدء وأيّان، بدء لا من شيء كالخلق الأول، وبدء من شيء هو الخلق الأوّل وسائر الخلق في المراحل الأخرى، وبدء لخلق الإنسان، وإذا كان البدء منه فالإعادة أولى ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾.

فالبدء أياً كان هو إنشاء من غير مثال سبق، والإعادة إنشاء سبق مثاله في البدء، سواء أكانت الإعادة بعد الإعدام المطلق كما قبل مطلق الخلق، أو الإعادة بعد مطلق الإعدام، كما قبل الإعدام، فالإعادة لما بدء ثم أعدم هي على أية حال أهون من البدء قياساً بينهما، وقياساً إلى القدرة المحدودة، وأما بالنسبة للقدرة غير المحدودة فلا مراحل في الهون كما الصعب، فلا صعب لها ولا أصعب، ولا هين ولا أهون، فكلّ هين تجاه القدرة الطليقة الإلهية على سواء كما ﴿قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا﴾[2].

(١) سورة النجم، الآية: ٣١.
(٢) سورة مريم، الآية: ٩.

والخلق الثاني أهون من الأوّل في نفس الذات وبالنسبة للقدرة المحدودة، ولكنه هنا ﴿عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾[١] لا أهون، ثم ﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا﴾[٢] تعطى أولوية لهذا المنيّ هنا، ويعبر عنها في آيتنا بـ ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيَّ﴾ ولا تعني إلّا تنازلاً في التفضيل، وليس في الحق عنده في قدرته تفضيل.

إذاً ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيَّ﴾ قد تعني الأهون في نفس الذات وبالنسبة لقدراتكم؟ ولكن ﴿عَلَيَّ﴾ قد تمانع عنايتها لخصوص هذين الأهونين! أم ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيَّ﴾ تنازلاً في التفضيل في حقل القدرة: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ وحقيقة في التفضيل في حقل العدالة ﴿وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ﴾.

فالبدء للخلق - أياً كان - هو قضية الفضل، وأما الإعادة - للمعاد الحساب - فهي قضية العدل، والعدل أهون من الفضل وأوجب في مثلث المقاييس: بينهما، وبالنسبة للعزة والحكمة المحدودتين، وبالنسبة للعزة الطليقة والحكمة اللّامحدودة.

أضف إلى كل ذلك كهامش في المعنى المعنيين الأوّلين للأهون حقيقياً، والثالث تنازلاً في الحوار.

فقد تعني ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيَّ﴾ سداسية المعاني، والأصل في الثلاثة الأول التنازل في التفاضل: لو كان له هين وأهون فـ ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيَّ﴾، ثم الأصل في الثلاثة الأخرى أن العدل أهون على الله من الفضل من حيث الحكمة، لا القدرة.

إذاً ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ قد تشيران إلى تنازل التفاضل بجنب القدرة العزة، وحقيقة التفاضل في مقياس الحكمة، حيث العدل أوجب على الله

(١) سورة مريم، الآية: ٩.
(٢) سورة مريم، الآية: ٩.